# هل التاريخ يعيد نفسه ؟ !
# دور النظام الرسمي العربي في قتل التجربة الوطنية العراقية

لم يمض قرنٌ من الزمان إلا واجه العراق كافة المحن الوطنية والقومية ، مثلما شهدَ أفراحَ أحداثٍ وطنيةٍ غزيرة ، إستمدَّ من كليهما العِبر والدروس بالقدر الذي تستطيع طلائعه الفردية أو المنظمة ، وإستخلص منهما المفكرون ما يمكن إستخلاصه من مفاهيم ، فشهد غزاة ومحتلين ومستعمرين ، وحروب شعبية دفاعية ، وثورات مسلّحة عارمة ضد الأجنبي ، وإنتفاضات باسلة صنعتها سواعد مختلف فئات الشعب ؛ كانت الدماء الوطنية ، القانية ، الزكية ، هي الطاقة التي أدامت الفعل المقاوم ضد الأجنبي الذي دفع فيه الثمن الباهظ والكبير من أرواح غُزاته وقواه العدوانية .

المستعمرون العثمانيون الطورانيون كما تجلت سياستهم أخيراً عشية القرن الماضي ، سياسة قيادتهم في ((الإتحاد والترقي)) على وجهٍ أخص عندما أصروا ــ في تمادٍ مقصود ــ بالتتريك اللغوي والتعيين الوظيفي ، فكان الرد السياسي عليهم هو : **الإجماع الوطني على ضرورة التحرر وتأسيس الدولة الوطنية** . ومن بعدهم جاء العسكريون الإنكليز المحتلين الحاكمين بشكل مباشر ، وسيطرتهم الإنتدابية قبل نيل الإستقلال الوطني العراقي **، بعد أنْ أجبرتهم ثورة العشرين الوطنية من القرن الماضي على تغيير أدوات سيطرتهم وطرق إستعمارهم ، وبالتالي : تأسيس المملكة العراقية إثر تلك الثورة التي إندلع أوارها في 30 حزيران 1920** ، وإضطرارهم للفرار من سياسة إدارة وضع العراق بالأيدي البريطانية مباشرة ؛ ومن ثَم الثورة التحررية الوطنية في العام 1941 ضد البريطانيين ، وعودتهم لسياسة الإحتلال الثاني للعراق عبر الإستعانة بقواتهم العسكرية التي جلبوها من جنوب أفريقيا والهند والإستعانة بسلطة النظام الهاشمي الأردني التي كان يرأس جيشه الجنرال البريطاني : أبو حنيك . والكفاح ضد المستعمرين البريطانيين وعملائهم من أقطاب الملكية العراقية بكل السُبُل ، حتى تكلل جهد الشعب العراقي النضالي في التحرر والإستقلال والسيادة الحقيقية في صبيحة اليوم الأغر : 14 تموز 1958 ، عندما تم ولادة الجمهورية العراقية .

**لقد إستمرت الحكومات الوطنية العراقية تدير شؤون الوطن بروح الإستقلال والسيادة جزئيا أو كلياً ــ قبل تأميم النفط أو بعده ــ ، كانت الديموقراطية السياسية والقمع السياسي سمتان أساسيتان في إدارة النظام السياسي المستقل ذي السيادة ، تتراجع عند هذه الفئة وتتصاعد عند تلك . حتى وقعت الطامة الكبرى وداهمت المجموعَ الوطني قواتُ الإذلال الأمريكي للعراق** .

جاء الإحتلال العسكري الأمريكي ــ البريطاني للعراق كي يؤرخ لمرحلة جديدة من تاريخ العراق ، الذي إندلع في العشرين من آذار 2003 ، ويشكل مرحلةً جللاً في كل تلك الكلمة من معنى مأساوي مؤذي مهين ، نظراً لعدم إعطاء زخم المقاومة المسلّحة المدى الأقصى من إمكانيات فعل الشعب الذي يختزنه ، وعلى وجهٍ أخص في بغداد العاصمة الخالدة لعراق النهوض الدائم والمتجدد .

ليس تحقيق النصر الحاسم هو المطلوب في زمن القطبية الواحدة , ولكن خوض المعركة بروحية الشرف وفي المواجهة الباسلة كما ينبغي لمعاني الشرف والبسالة أنْ تأخذ أبعادها . الدفاع المسلَّح ضد الغزاة والمعتدين قبل أنْ ينجزوا اِحتلالهم الغاشم . . . الدفاع المجيد والمضيء عن الوطن والشعب ، هو ما كان مطلوباً وفق المقاييس الوطنية والقومية والإسلامية ، وهو الذي أمَلّتْ منه الجماهير العراقية والعربية والدينية الكثير والكبير : قتل الغزاة العسكريين هو ما كان أملاً وطموحاً ، وتلقينهم الدرس التاريخي في المقاومة الوطنية العراقية ، **وهو المبرر الوحيد لذلك الصبر السياسي العراقي على كل ما حدث في الماضي من خسائر في الأرواح والممتلكات والأموال التي صرفتها السلطة** .

كان الجميع يعرف الفرق النوعي بين ميزان القوى بين الطرفين . لكن ما وقع في بغداد كان المفاجأة والفاجعة غير المسبوقة في التاريخ العراقي المقاوم ، ورسم علامة تساؤل سوداء في تاريخه المليء بالصراعات الكبرى ضد الأجنبي ، إضافة إلى خذلانه الشارع العربي المقاوم ، وتيئيسه لكل المسلمين المجاهدين في كافة بلدان العالم .

مثلما كانت الغالبية تعرف جيداً أنَّ كل الوضع السياسي العربي الرسمي ، **ماخلا** موقف النظام السوري ، هي الطاقة المضافة للعدوان الغربي في كل أبعاده ، لذا كان من الضروري جداً : أخذ ذلك العامل بالحسبان والتقدير اِنطلاقاً من نظرة تاريخية ورؤية سياسية راهنة ، وحسم التعامل الناجز مع الوضع الرسمي العربي : مع الجامعة العربية ، مع مؤتمرات القمة العربية ، مع العلاقات الرسمية العربية . كان اللجوء للشعب العراقي هو الموئل الأخير والملاذ المنتظر ، لا الأنظمة العربية على اِختلاف نظمها ومختلف حساباتها ، اِستفتائه عن كل شيء يمُسُّ حياته الراهنة والمستقبلية ، لا التفكير في كسب الوضع العربي الرسمي ! .

كان النظام الرسمي العربي يشارك الأعداء خططه وفق المحددات التي يرسمها له الأمريكيون على ضوء إستراتيجيته المؤكدة على ضرورة الإستفادة من وزن سلطات الأنظمة المعتدلة ، لا سيما في مصر والجزيرة العربية والأردن . . . اِستخدامهم كجزرة ثانوية لخدمة عصاها العسكرية الأساسية . وكانت دولتنا العراقية تمنحهم التصريحات المباركة لعملهم التآمري . كانت سلطة النظام المصري تتصرف على ضوء أولوية اِلتزامها بمعاهدة كامب ديفيد التي حدد سقفها كيان الإغتصاب الصهيوني ، ذلك الكيان الذي يستهدف العراق تاريخاً وحاضراً .

كانت سلطة آل سعود تفتح أراضيها ومياهها وأجواءها للقوات الأمريكية الغازية بغية تدمير العراق خطوة بعد خطوة ، وتهيء قاعدة عرعر الجوية العسكرية لكي يشنَّ العسكريون الأمريكيون عدوانهم اليومي ، وكانت سلطتنا العراقية تتحدث عن الأخوّة العربية والموقف القومي ، والشاشات المرئية تبرز صورة التقبيل المشترك بين عزة الدوري وولي العهد السعودي : الأمير عبد الله . .

كانت الحكومة القطرية تحيل المناطق التي تقع تحت سيطرة قبضتها إلى مخزن للأسلحة الأمريكية المتطورة ، ومقر للقيادة العسكرية الأمريكية ، وموقع ومنطلق

للعدوان على العراق ، وسلطة دولتنا تستقبل وزير خارجيتها وتتكلم عن الصداقة العربية .

كانت السلطة الهاشمية في الأردن تتسِّق يومياً مع العدو الأمريكي ونحن نبريء السلطة الملكية من أفعالها الإجرامية وخطواتها الدنيئة ؛ تستقبل أراضيها ألوف العسكريين الغربيين الذي يتسلل بعضهم للمنطقة الغربية في العراق ، ونحن لا نتكلم عنهم ، أو يكتفي البعض بالإعلان والتحذير .

سلطة آل صباح تفرش أرضها وتفتح أجواءها وتوفر مياهها للغزاة وتصعِّد إعلامها ضد الدولة العراقية ونحن نكتفي بالشتيمة ، بدلاً من تكرار فعل الحكمة القائلة : أُغزوهم قبل أنْ يغزوكم . ومعلوم إنَّ إدارة المعركة السياسية ، ليس بالحرب وحدها ، ولن تكون المناوشات العسكرية مفرداتها المباشرة .

كانت قيادة الأسطول الأمريكي الخامس في البحرين ، وتجوب أساطيلها المياه العربية ، ونحن ساكتون عن سلطة آل خليفة المملوكية ، وما نزال .

**كان الوضع العربي الرسمي متآمراً مع الخارج الأمريكي ، في الوقت الذي يبرر ((سادتنا الحاكمون)) أفعاله الدنيئة الشنيعة .**

الفرق بين الوعي الذي إنتظم العنصر الذاتي العربي في لحظة الغزو البريطاني للوطني العربي ــ والعراق في المقدمة منه ــ خلال الحرب العالمية الأولى ، هو **الغفلة المطلقة** عن خطط الإستعمار الرامية للهيمنة والإستغلال والسيطرة . والتفكير فقط بإرادة الأنا الوطنية والقومية ، التطلع للإستقلال والوحدة ، صعود الحركة القومية التقليدية التي شكلت قيادة الوطن العربي قبل صيرورة المرحلة القومية العربية الحديثة ، و تبلورها مع صعود ثورة 23 يوليو عام 1952 . الرضى بالخديعة البريطانية ــ الفرنسية : أبطال سايكس ــ بيكو وفرسان الوعد البلفوري وأكاذيب مكماهون التي إنطلت على قيادة الشريف حسين للثورة العربية الكبرى ؛ **أما اليوم فينبغي أنْ يكون للوعي الفكري والسياسي دوره في التخطيط والتقرير ، وإلا ماذا تعلمنا من دروس تجربتنا الخاصة ؟ ! .**

تجربة الحركة القومية الحديثة بقيادة ثورة 23 يوليو المصرية عام 1952 ورمزها الرئيس جمال عبد الناصر . والصراع مع الصهاينة . ومخططات التجزئة ونتائجها . وهزيمة الخامس من حزيران عام 1967 . ومعاهدة كامب ديفيد بين السلطة المصرية وكيان الإغتصاب الصهيوني في أواخر السبعينات . وإحتلال بيروت بعد العدوان العسكري الشامل على لبنان في عام 1982 . والعدوان العسكري ، المباشر وغير المباشر ، على الثورة الفلسطينية وإنتفاضتي شعبنا العربي هناك طوال العقد التسعيني . ومايزال . والتبعية المطلقة حتى بالتفاصيل للبعض العربي للإمبريالية التسلطية الأمريكية . والدماء النازفة المستمرة التي سفحها المناضلون العرب على أرض الجهاد والرباط في كل الوطن العربي . . . كل دروس تلك التجربة المأساوية والمفرحة ، كما هي طبيعة التاريخ الذي يضم سفر صفحاته الرديء والحسن ، والجيد والمسيء ، المظلم والمضيء ، جرى التغافل عنها أو نسيانها بدلاً من تحولها إلى وعيٍ فكري راسخ جذري ذي حضور دائم في الذاكرة السياسية العربية اليومية عند القادة ؟ ! .

لقد اِجتمع ملوك ورؤساء الأنظمة المجاورة للعراق ، يوم الجمعة الموافق 2003/4/18 بالعاصمة السعودية : الرياض بذريعة مجاورتها للعراق ، وكأنهم اِستبدلوا عنوان فلسطين بالعراق ــ أي ضياعه الأبدي من وجهة نظر المسؤولين الرسميين ــ حول طاولة قراءة الفاتحة على العراق الذي شارك أغلبهم في هزيمته وتدميره ، وسفحوا دموع التماسيح الكاذبة على الوطن المحتل أمريكياً ، مثلما بكى سلفهم عبد الله على الأندلس كالنساء بعد فقد الرجال دورهم ، وتعهدوا بتفريق صدقاتهم الخائبة على أبنائه المنكوبين بالاحتلال العسكري ، وسيروا بعض الشاحنات الإنسانية ((المتَبرَع أغلبها)) من برنامج النفط مقابل الغذاء والدواء الذي دفع ثمنه العراق ، وبعد أنْ منعتْ دخولها العراق في فترة الحرب بحجج مختلفة ، سلطة الملك عبد الله الذي شارك جده عبد الله في معاونة الصهاينة والإنكليز على اِغتصاب فلسطين سنة 1948 وغزو العراق في عام 1941 .

لقد حذروا ــ أي الملوك والرؤساء ــ شعبه من مغبة الفرقة وغياب المؤسسات على طريقة ذاك الذي ألقى أخاه أو خصمه في الماء وقال له : إياك إياك أنْ تبتَّلَ بالماءِ ، قاموا بفعلتهم المجرمة مثلما قام أخوة يوسف بإلقائه بالجب ، مع عدم الجرأة بالنطق حتى عن الذئب المزعوم ، واِدعاء القول بما فعل ، وإنما اِكتفوا بمناشدة العدو الأمريكي بأنْ لا يطيل ((الإقامة)) في العراق ، وكأن الذي اِرتكبه الأمريكيون من فعل فاحش وهمجي ومجرم كان مجرد نزهة عنَّت على الخاطر ، وجاؤوا لأسباب ((إنسانية)) . . . أو كأنَّ الذي غزا العراق ليس أمريكا وبريطانيا ، وتسببت جيوشهما الغازية التي دنست تربة الوطن بأحذيتهم العسكرية . . . تسببت في إلحاق أذى غير مسبوق بالشعب العراقي حاضراً ومستقبلاً ! ! .

((سنبحث سبل مساعدة العراق على الخروج من الأزمة)) هكذا قرر وزراء خارجية ورؤساء كلٍ من تركيا والبحرين والكويت والأردن ومصر وإيران وسورية المهددة بتطبيق المثال العراقي إنْ لم تسلك الطريق الذي رسم تفاصيله الأمريكيون ، وفق تعليمات التقرير الإستراتيجي الذي تناولنا بعضه في المقدمة . . . مجرد مساعدة للخروج من الأزمة ، حتى من دون إبداء إشارة إدانة ((كلامية)) للقطب الدولي الجديد ، **<u>وكيف يدينه مَنْ شارك في الغزو والعدوان والتدمير ، وكيف يستطيع الحاكمون في السعودية الكلام عن العراق ، وأرض الجزيرة العربية مفتوحة للقوات الأمريكية ، وكيف يستطيع مجلس التعاون الخليجي على الإثم والعدوان من الحديث عن السائس الذي يجرجرهم من خطم أنوفهم نحو زريبة الإعتداء على العراق</u>** ؟ ! .

لقد حوَّل مبارك **<u>دور مصر</u>** في تعليقاته وتصريحاته حول العدوان على العراق ، إلى مجرد أرقام ومعلومات دعائية وهو يعلم علم اليقين ، **<u>أولوية</u>** الإلتزام ببنود معاهدة كامب ديفيد مع كيان الاغتصاب الصهيوني ، في كل تصرف سلطة مصر السياسي على المستوى العربي ، من ناحية ، وتناسى إسهام الوضع الاقتصادي في دعم السوق المصرية واِقتصادها بشكلٍ مباشرة : أربعة مليارات دولار ستفقدها حتماً ، من ناحية أخرى . مثلما فقدت سوريا الأنبوب النفطي وإيجابيات السوق المشتركة ، من ناحية ثالثة . ناهيك عن مردود العمالة المصرية التي كانت في

العراق أيام الخير القومي العربي ، والتبرع النفطي للشعب العربي الأردني ، وغير ذلك الكثير الوفير . تلك هي تجليات بعض السياسة العراقية الرسمية على المستوى الفعل القومي العربي ، نذكر ذلك على سبيل المثال وليس الحصر .

لقد **أعادت** سلطات الأنظمة العربية الرسمية لعب دورها السياسي السابق : ماكو أوامر العراقية ، والعين بصيرة واليد قصيرة الأردنية ، وغيرها الكثير من تلك التصرفات التي أماطت اللثام عنها الوثائق التي تسببت في هزيمة عام 1948 التي جسدت فعل التبرير الرسمي العربي المتواطيء مع البريطانيين وممثلي الحركة الصهيونية ، **بفعلٍ سياسي مشين حالياً مع العراق** ، تحت حجج واهية ومقولات زائفة ، من قبيل عدم القدرة على المواجهة ، والتخفي تحت يافطة الإقليمية ، أو الدجل أو الصمت ، **في الوقت الذي كان الحكَّام العرب منخرطين بشكل مباشر أو غير مباشر في العدوان الأمريكي على الدولة العراقية ، عبر التسهيلات والإتفاقات وإنفاق الثروات المالية وإدامة الآلة العسكرية بالطاقة البترولية** . إنَّ تحديد شكل الداء هو نصف متطلبات الدواء . **والإنفتاح الإعلامي على منابر متكاملة في إطار الإخلاص للدولة العراقية كان يتيح المجال لقول كلمة حق بخصوص سياسة هذه الأنظمة ، ويعمل حثيثاً على فضح سياساتها المخاتلة ، ويفكك شبكات التضليل عن مقولاتها السياسية ويفضح زيف ممارساتها ، من موقع الوثوق والإيقان بتلك المنابر** .

كان التنسيق مع فصائل حركة التحرر العربية والعالمية هو الحلقة المفقودة في الفعل العربي المقاوم للمخططات الأمريكية ، على مستوى مجابهة أعمال وأقوال عملائها العرب ، الذين يتمتعون بهبات الثروات البترولية الخليجية ، ويروجون مقولات الرؤية الغربية عن الديموقراطية وحقوق الإنسان والحرية ، التي رأيناها متجسدة في أعمالهم الإجرامية المنصَّبة حممها على الوطن العراق ، وعلى الشعب العراقي ، وبحق منجزه التاريخي والمستقبلي للعراق . في المجابهة الثقافية والفكرية والإعلامية لن تكون الغلبة في الزمان النفطي الرديء ، إلا للكلمة الصادقة والجملة الشفافة ، والرؤية المخلصة ، التي تفضح الأكاذيب وتؤشر إلى مواقع الخلل عند الذات والآخرين ، وما كان ذلك يكون إلا عبر إعلام حر ومتحرر وصادق لا يحرق البخور للمتنفذين في القرار والتقرير ، ويسعى للتنقيب عن الحقيقة الوطنية والقومية والدينية التي تخدم الوطن الذي يبحث عن إستقلاله والشعب الذي يناضل في سبيل نيل سيادته على ثرواته في كل المجالات .

غالبية السلطات العربية توظف أرضها ومياهها وأجواءها لصالح الموقف الأمريكي . . . السلطات التي تمتلك الوسائل الدعائية المقروءة والمسموعة والمرئية ، وتضخ المقولات المخاتلة الزائفة ، التي تضيف الوقود في الآلة الأمريكية العدوانية ؛ **والأصوات العراقية الحرَّة المخلصة غائبة عن ميدان أي فعل مؤثر** ، وأصوات الأنظمة المناوئة لها : خصوصاً الدعائية منها ، **لا تكتسب أية مصداقية في ميادين التحليل والتفسير** ــ إنْ سمعَ بها أحد ــ والتأشير على ما يجري في الحاضر وما ينطوي عليه المستقبل من مخاطر جوهرية ؟ ! .

لماذا جرى ذلك ، وكيف تم ذلك ، ذلك ما نتأمل أدائه من المخلصين وطنياً وقومياً وحضارياً دينياً ، وتلك هي مهمة الوطنيين العراقيين الحقيقيين من المفكرين ـ إضافة إلى إسهامهم الجاد ، الفعلي في الكفاح ضد الأعداء المحتلين ـ في البحث عن الحقيقة حول ملابسات التخلف البنيوي العربي والملابسات التي تخللت هذه الحرب ، والجواب على السؤال التاريخي الهام : لماذا نجح العدو ولماذا اِنهزمنا ؟ ؟ ! ! .

2003 / 4 / 23

باقر الصرَّاف

كاتب عراقي مقيم في هولندا